

بعض مسائل العقيدة
من منظور الحديث الشريف

الأجل .. الرزق .. العمل .. الهداية .. الإضلال

الدكتورة

شيخة حمد العطية (مدرس)

قسم أصول الدين

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية والقانون

جامعة قطر

الحمد لله الذي لا عاصم سواه، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء المعصوم بعصمة الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه .. أ ما بعد،

فإن موضوع القضاء والقدر كثير الأشواك، يهاب حصاده العلماء دقيق كحد السيف يخشى تناوله الراسخون في العلم ، بل هو بحر متلاطم الأمواج تتقاذف أمواجه السفن الصغار والكبار، غائر الأعماق ، يخشى ولوجه الغواصون ومن يجيد العوم، وأنا مبتدئة في هذا الفن، وسفينتي أمامه صغيرة الحجم مطوية الشراع ، وقفت على شاطئه، أحدث نفسي أن أخوضه، راجية أن أعبره إلى الشاطئ الآخر، لعلي أعلم منه ما لا أعلم ولعلي أعلّم به وبذخائره من لا يعلم ..

خطر ببالي الأجل وعلاقته بالقدر، أهو مكتوب ومحدد أزلاً؟ لا يزيد ولا ينقص؟ أم يزيده بر الوالدين ، وصلة الرحم؟ وينقصه القتل مثلاً؟

وأنا متخصصة في الحديث النبوي، وأمامي نصوصه ، بعد نصوص القرآن الكريم ، وفيها ما ظاهره أنه أمر مقضي مقطوع به لا يزيد ولا ينقص، وفيها ما ظاهره أنه قابل للتعديل والتغيير .

أ - الآيات الدالة على أن الأجل مقضي ومقطوع به :

استعرضت من القرآن الآيات الدالة على أن الله مقدر كل شئ قبل وجوده مثل :

(١) قوله تعالى: **﴿ إنا كلَّ شيء خلقناه بقدر ﴾ ، ﴿وما أمرُنا إلا واحدة ، كلمح بالبصر﴾** [1] أي إن كل شيء من الأشياء وكل خلق من

---

(١) سورة القمر : آية (٤٩ ، ٥٠) .

المخلوقات مقدر مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه، وهذا المعنى هو المأثور عن كثير من السلف، وقد روى الإمام أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ص في القدر، فنزلت [١].

فهذه الآية نص في أن الله خالق كل شيء ومقدره في الأزل قبل وجوده ومن ذلك الأجل.

والقدر من القدرة ، والقدرة تتضمن الإرادة، وحاصل القدر وجود الشئ في وقت معين على وفق العلم والقدرة والإرادة والأمر. وحاصل المعنى: أن كل شيء لايقع في الوجود إلا وقد سبق به علم الله ومشيئته [٢] ومما يقع في الوجود الآجال ، بدايتها ونهايتها .

والقضاء والقدر مترادفان، قال الراغب: وقدَّر الله الشيء - بالتشديد - قضاه، ويجوز بالتخفيف اهـ [٣] . وقدر الله الشيء جعله بقدر .

وفرق بعضهم بين القدر والقضاء ، فخص القضاء بالحكم الإجمالي في الأزل ، وخص القدر بجزئيات ذلك الحكم وتفاصيله في الأزل [٤] . وعلى هذا التفصيل يمكن أن يكون الأجل في القضاء تمديده إجمالاً كأن يقال : عُمر (زيد) مثلاً ستون عاماً ، وأن يكون القدر تفصيل هذا العمر خمسون في صحة وعشر في مرض ، أو خمسون في فقر وعشر في غنى، وكذا سنة في بلد كذا ، وكذا سنة في بلد كذا . . . وهكذا .

---

(١) روح المعاني للالوسي ٢٧/ ٩٤ .
(٢) انظر فتح الباري ١١/ ٤٨٧ .
(٣) في كتابة المفردات ص/ ١٧٠ ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، ط ١٩٦١م .
(٤) المصدر السابق .

وسواء كانا مترادفين أو غير مترادفين فهما الحكم والتقدير في الأزل .

(٢) وقوله تعالى: **﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾**[١] .

فهذه الآية تؤكد أن الأجل مسمى عنده تعالى ومحدد .

(٣) ومثلها قوله تعالى: **﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يُمتِّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمًّى﴾**[٢] .

يقول الألوسي : إلى أجل مقدر عند الله وهو آخر أعماركم[٣] .

(٤) وقوله تعالى: **﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾**[٤].

قال القرطبي: هذا إعلام أن الموت لابد منه، وأن كل إنسان مقتول أو غير مقتول ميت إذا بَلَغ أجله المكتوب له ، لأن معنى «مؤجلاً» إلى أجل ، ومعنى «بإذن الله» بقضاء الله وقدره، وأجل الموت هو الوقت الذي في معلومه سبحانه تعالى أن روح الحي تفارق جسده، ومتى قتل العبد علمنا أن ذلك أجله ، ولايصح أن يقال: لو لم يقتل لعاش[٥] .

(٥) وقوله تعالى: **﴿ولكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلُهُم لا يستأخرونَ ساعة ولا يستقدمون ﴾**[٦] .

قال الألوسي: كأنه قيل: إذا جاء آجالهم بأن يجيء كل واحد من

---

(١) سورة الزمر : آية (٤٢) .
(٢) سورة هود : آية (٣) .
(٣) روح المعاني جـ ٢٠٨/١١ .
(٤) سورة آل عمران : آية (١٤٥) .
(٥) تفسير القرطبي ٢٢٦/٤ .
(٦) سورة الأعراف : آية (٣٤) .

تلك الأمم أجله الخاص به ، والمراد من الساعة قطعة من الزمان في غاية القلة ، وليس المراد بها الساعة المعروفة (المقدرة بستين دقيقة) ، والمراد: لا يتأخرون أصلاً ، ولا يتقدمون عليه أصلاً [1].

(٦) وقوله تعالى: **﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾ ﴿ ما تسبق من أمة أجَلَهَا وما يستأخِرون ﴾** [2].

قال القرطبي: «إلا ولها كتاب معلوم» أي أجل مؤقت ، كتب لهم في اللوح المحفوظ، ومعنى **﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾** أي لاتتجاوز أجلها فتزيد عليه ، ولا تتقدم قبله [3].وقال الفخر الرازي :معناه أنه لا يحصل ذلك الأجل قبل ذلك الوقت ولا بعده ، بل إنما يحصل في ذلك الوقت بعينه ، وإنما اختص حدوثه بذلك الوقت المعين لأن الله العالم خصصه به بعينه ، وإذا كان كذلك فقدرة الإله وإرادته اقتضتا ذلك التخصيص، وعلمه وحكمته تعلقا بذلك الاختصاص بعينه [4].

(٧) وقوله تعالى: **﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلُها، والله خبير بما تعلمون﴾** [5].

يقول الألوسي: أي ولن يهملها إذا جاء آخر عمرها، أو انتهى الزمان الممتد لها من أول العمر إلى آخره، على تفسير الأجل به [6]. يشير بذلك إلى أن للأجل معنيين: **الأول**: الوقت المضروب لانقضاء المهملة،

---

(١) روح المعاني ٨/١٤٣ .
(٢) سورة الحجر : آية (٤) ، (٥) .
(٣) تفسير القرطبي ١٠/٣ .
(٤) تفسير الفخر الرازي جـ ١٩/١٥٦ وما بعدها - ط الثالثة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
(٥) سورة المنافقون : الآية (١١) .
(٦) روح المعاني جـ ٢٨ /١١٨ .

وأجل الإنسان هو الوقت المضروب لانقضاء عمره، **الثاني**: هو مدة العمر من يوم الولادة إلى يوم الوفاة.

(٨) وقوله تعالى: ﴿ **وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه**﴾[١] .

قال الألوسي: أي لاينبغي الريب فيه، ولا يليق إنكاره ، فقد علموا إمكانه، وأنهم ميتون لا محالة [٢] .

فهذه الآيات كلها وكثير غيرها تفيد أن الأجل عند الله مضروب ومحدد ، لا يتغير ولا يتبدل .

ب - الأحاديث التي ظاهرها أن الأجل مقضي لايزيد ولا ينقص :

وتؤكد هذا المعنى السُّنّة النبوية في كثير من الأحاديث الصحيحة البالغة حد الشهرة أو حد التواتر، أستعرض منها :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «وكَّلَ الله بالرحم ملكاً ، فيقول: أي رب نطفة» يعني: يارب صارت واستقرت في الرحم نطفة «أي رب علقة» يعني، يارب خلقت النطفة وصيرتها علقة، أي قطعة صغيرة تعلقت بجدار الرحم «أي رب نطفة» يعني يارب خلقت العلقة مُضغة ، وصارت العلقة قطعة من اللحم قدر ما يُمضغ فإذا أراد الله ان يقضي خلقها قال الملك: «أي رب ذكر أم أنثى ؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق» أي فما مقدار رزقه؟ «فما الأجل» فما مقدار الأجل بالسنة والشهر واليوم والساعة والدقيقة والثانية «فيكتب كذلك» أي يكتب جواب كل ذلك في كتاب ، وهو «في بطن أمه» [٣] .

---

(١) سورة الإسراء ، آية (٩٩) .
(٢) روح المعاني ١٥/١٧٩ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب القدر ، حديث رقم (٦٥٩٥) . وانظر فتح الباري جـ ٤٧٧/١١ .

وعند مسلم «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد**». وفي لفظ لمسلم «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم» أي وتتحول إلى علقة ، ثم إلى مضغة «فيقول : يارب أشقي أو سعيد؟ فيكتبان» أي يكتب أحدهما «فيقول: يارب أذكر أو أنثى؟ فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ، ثم تطوى الصحف ، فلا يزاد فيها ولا ينقص»[1] .

وفي لفظ لمسلم «**إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة**» أي وتحولت إلى علقة ثم إلى مضغة «**بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : يارب . أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول : يارب أجله؟ فيقول ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يقول : يارب رزقه؟ فيقضي ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده ، فلا يزيد على ما أمر ، ولا ينقص**» [2] .

وفي لفظ لمسلم «جاء سراقة بن مالك ، قال : يارسول الله ، بين لنا ديننا، كأنا خلقنا الآن ، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام؟ وجَرَتْ به المقادير؟ أم فيما نستقبل؟ قال :«**بل فيما جفت به الأقلام ، وجَرَتْ به المقادير** ، قال : ففيم العمل ؟ فقال : «**اعملوا فكل ميسر**» [3] .

فهذه الأحاديث صريحة في أن الآجال مضت بها المقادير، وسبق علم الله تعالى بها ، وتمت كتابتها في اللوح المحفوظ، وجف القلم الذي كتب به،

---

(١) في كتاب القدر (باب : كيفية الخلق الآدمي . . .) رقم (٢٦٤٣ ، ٢٦٤٤) ج٣/ ٢٠٣٦ ، ٢٠٣٧ .

(٢) المرجع السابق رقم (٢٦٤٥) .

(٣) المرجع السابق رقم (٢٦٤٨) .

وامتنعت فيه الزيادة والنقصان. قال النووي: قال العلماء: وكتاب الله تعالى ولوحه وقلمه والصحف المذكورة في الأحاديث كل ذلك مما يجب الإيمان به، وأما كيفية ذلك وصفته فعلمها إلى الله تعالى: **﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾** [1] .

ج - الآيات الدالة على أن الأجل يزيد وينقص :

استعرضت من القرآن الكريم ما ظاهره أن الأجل يزيد وينقص ، **ففي القرآن الكريم :**

(١) يقول الله تعالى على لسان نوح لقومه **﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾** ، **﴿يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾** [2] .

قال الألوسي: «ويؤخركم إلى أجل مسمى» هو الأمد الأقصى الذي قدره الله تعالى بشرط الإيمان والطاعة ، وراء ما قدره عز وجل لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان، فإن وصف الأجل بالمسمى ، وتعليق تأخيرهم إليه بالإيمان والطاعة صريح في أن لهم أجلاً آخر لا يجاوزونه إن لم يؤمنوا ، وهو المراد بقوله تعالى **﴿ إن أجل الله ﴾** أي ما قدره عزّ وجلّ لكم على تقدير بقائكم على ما أنتم عليه **﴿ إذا جاء﴾** وأنتم عليه **﴿لا يؤخر﴾** فبادروا بالإيمان والطاعة قبل مجيئه، حتى لا يتحقق شرطه الذي هو بقاؤكم على الكفر والعصيان فلا يجيء ويتحقق شرط التأخير إلى الأجل المسمى ، فتؤخروا إليه، فالجملة تعليل للأمر بالعبادة المستتبعة للمغفرة والتأخير إلى الأجل المسمى . أ هـ [3]. وهذا

(١) سورة البقرة : الآية (٢٥٥) ، وانظر النووي شرح مسلم ٥/٥٠٣ .
(٢) سورة نوح : الآية (٣ ، ٤) .
(٣) روح المعاني ٢٩/٧١ .

ظاهر في أن عمرهم يزيد إن هم عبدوا الله واتقوه وأطاعوا رسولهم .

ويقول القرطبي : «ويؤخركم إلى أجل مسمى» قال ابن عباس : أي يُنسىء في أعماركم ، ومعناه : أن الله تعالى كان قضى قبل خلقهم أنهم إن آمنوا بارك في أعمارهم، وإن لم يؤمنوا عوجّلوا بالعذاب. أ هـ[1] . وهذا أيضاً ظاهر في أن عمرهم يزيد إن هم عبدوا الله واتقوه .

ويقول ابن كثير: «ويؤخركم إلى أجل مسمى» أي يمد في أعماركم، ويدرأ عنكم العذاب ، الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم ، وقد يستدل بهذه الآية من يقول إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة، كما ورد به الحديث **«صلة الرحم تزيد في العمر»** أ هـ[2] .

(٢) ويقول تعالى : **﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجلٌ مسمىً عنده ثم أنتم تمترون﴾**[3].

قال الألوسي : المعنى : وأجل مستقل بعلمه سبحانه وتعالى ، لايقف على وقت حلوله سواه جلّ شأنه، لا إجمالاً ولا تفصيلاً ، وهذا بخلاف أجل الموت ، فإنه معلوم إجمالاً ، بناء على ظهور أماراته، وبناء على ما تعلمه الملائكة وتكتبه ، فقد قيل : لكل شخص أجلان ، أجل يكتبه الكتبة ، وهو يقبل الزيادة والنقص، وهو المراد بالعمر في حديث **«صلة الرحم تزيد من العمر»** ونحوه، وأجل مسمى عنده سبحانه وتعالى لا يقبل التغيير، ولا يطلع عليه غيره عزّ شأنه. أ هـ[4].

وقال القرطبي: قيل لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٢٩٩/١٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤/ ٤٢٤ .
(٣) سوة الأنعام : الآية (٢) .
(٤) روح المعاني جـ ٨٨/٧ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«من أحب أن يمد له في عمره وأجله ويبسط له في رزقه فليتق الله وليصل رحمه»** قيل له : كيف يزاد في العمر والأجل؟ فقال: قال الله تعالى **﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾** فالأجل الأول: أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل الثاني: - يعني المسمى عنده - من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله، فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البَرْزخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في أجل البرزخ ، فإذا تحتم الأجل في علمه السابق امتنع الزيادة والنقصان، لقوله تعالى: **﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾** فتوافق الخبر والآية، وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأجَل على ظاهر اللفظ في اختيار حبر الأمة ، والله أعلم [١] .

(٣) ويقول تعالى: **﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يُعمَّر من مُعمَّرٍ ولا يُنقصُ من عُمُرِه إلاّ في كتابٍ ، إن ذلك على الله يسير﴾** [٢].

قال القرطبي: قيل : إن الله كتب عمر الإنسان مئة سنة إن أطاع وتسعين إن عصى، فأيهما بلغ فهو في كتاب، وهذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام **«من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره** - أي يؤخر له في أجله - **فليصل رحمه»** أي أنه يكتب في اللوح المحفوظ: عمر فلان كذا سنة، فإن وصل رحمه زيد في عمره كذا سنة، فبين ذلك في موضع آخر من اللوح المحفوظ، أنه سيصل رحمه، فمن اطلع على الأول دون الثاني ظن أنه زيادة أو نقصان . أ هـ [٣]. وقال

(١) تفسير القرطبي ٩/ ٣٣٠ ، ٣٣١ .
(٢) سورة فاطر : الآية (١١) .
(٣) تفسير القرطبي جـ ١٤/ ٣٣٣ ،

عند تفسير قوله تعالى ﴿يمحو اللهُ ما يشاءُ، ويُثبِتُ وعِندَهُ أمُّ الكتاب﴾[1]: الأظهر أن الآية عامة في جميع الأشياء، ومعناه: يروى عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وأبي وائل وكعب الأحبار وغيرهم، وهو قول الكلبي وعن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: (اللّهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحنى وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب). وقال ابن مسعود: (اللّهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم ، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء واكتبني في السعداء فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب) . وكان أبو وائل يكثر أن يدعو: (اللّهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامح واكتبنا سعداء وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب). وقال كعب لعمر بن الخطاب: لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾. وقال مالك بن دينار في المرأة التي دعا لها: (اللّهم إن كان في بطنها جارية فأبدلها غلاماً ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب) .

د - الأحاديث التي ظاهرها أن الأجل يزيد وينقص:

استعرضت من السُّنة النبوية ما ظاهره أن الأجل يزيد وينقص ففي صحيح البخاري ومسلم وأبي داود عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه**»[2].

---

(١) سورة الرعد : الآية (٣٩) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب البيوع باب (١٣) (من أحب البسط في

قال الحافظ ابن حجر: الأثر الأجل، وسمى الأجل أثراً لأنه يتبع العمر،

قال زهير:

والمرء ما عاش ممدود له أملٌ   لا ينقضي العمر حتى ينتهي الأثر

قال: وأصله من أثر مشيه في الأرض، فإن من مات لا يبقى له حركة، فلا يبقى لقدمه في الأرض أثر وقال: «وينسأ» بضم أوله وسكون النون، أي يؤخر.

وقال: وللترمذي[1] وحسنه من وجه آخر عن أبي هريرة **«إن صلة الرحم محبة من الأهل، مثراةٌ للمال، منسأة في الأثر»**.

وعند أحمد[2] بسند رجاله ثقات عن عائشة مرفوعاً **«صلة الرحم وحسن الجوار وحسن الخلق يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»**.

واخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند[3] والبزار[4] وصححه الحاكم[5] من حديث على نحو حديثي الباب، وقال: «ويدفع عنه ميتة السوء»، ولأبي

الرزق)، وفي كتاب الأدب - (باب صلة الرحم) - واخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر حديث رقم (٢٠) - وأخرجه أبو داود في سننه كتاب الزكاة (باب: ٤٥).

(١) في كتاب البر والصلة (باب: ماجاء في تعليم النسب) رقم (١٩٧٩) جـ ٤/ ٣٥١، ط استنبول - ورواه أحمد في مسنده أيضاً في ٢/ ٣٧٤.

(٢) في مسنده ٦/ ١٥٩.

(٣) ١/ ١٤٣.

(٤) في البحر الزخار ٢/ ٢٧٤ رقم (٦٩٣) تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله. وذكره الهيثمي في المجمع ٨/ ١٥٢ وقال: رواه عبد الله بن أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجال البزار رجال الصحيح غير عاصم بن حمزة وهو ثقة.

(٥) جـ ٤/ ١٦.

يعلـى[1] من حديث أنس رفعه **«أن الصدقة وصلة الرحم يزيد الله بهما العمر، ويدفع بهما ميتة السوء»** وعند البخاري في الأدب المفرد[2] من حديث ابن عمر **«من اتقى ربه، ووصل رحمه نسيء له في عمره ، وثرى ماله ، وأحبه أهله»**[3] .

هـ - أراء المعتزلة وأهل السنة في هذه المسألة (الأجل) :

إن البحث في هذه المسألة - قديم - أعني مسألة علاقة الأجل بالقضاء والقدر ، تصارع فيه المعتزلة وأهل السُنّة ، بل واختلف فيه بعض أهل السُنّة مع بعض.

فالشهرستاني في كتاب (نهاية الإقدام في علم الكلام) يقول : قال أصحابنا كل من مات حتف أنفه أو قتل فإنما مات بأجله الذي جعله الله عز وجل أجلاً لعمره، والله قادر على إبقائه والزيادة في عمره، لكنه إذا لم يبقه إلى مدة لم يكن المدة التي لم يبق إليها أجلاً له، كما أن المرأة التي لم يتزوجها قبل موته لم تكن امرأة له إن أمكن أن يتزوجها لو لم يمت . **قال:** واختلفت القدرية في هذه المسألة ، فأبو الهذيل يقول مثل قولنا، وهو أن المقتول لو لم يقتل مات في وقت أجله ، [لأن المدة التي لم يعش إليها لم تكن أجلاً له ، ولا من عمره] . **وقال الجبائي** أيضاً: فيمن علم الله منه أنه يقتل لعشرين سنة، أن الوقت الذي يقتل فيه أجل له، وهو أجل موته، ولايجوزان يكون له أجل آخر، إلا على تقدير الإمكان. وزعم الباقون من القدرية: أن المقتول مقطوع عليه أجله، فجعلوا العباد قادرين على أن ينقصوا مما أجله الله عزّ وجلّ ووقته، ولو جاز ذلك لجاز أن يزيدوا في أجل من قضى الله له أجلاً محدوداً، وإذا لم يقدروا على الزيادة في أجل آخر لم يقدروا على النقصان

(١) جـ ٧/١٣٩ رقم (١٤٠٤) .
(٢) رقم (٥٦) .
(٣) انظر فتح الباري ، جـ ١٠/٤١٥ وما بعدها .

منه.

فأمـا قول نوح عليه السـلام «ويؤخركم إلى أجل مسـمى» فإنه لم يقل : ويؤخركم إلى أجل لكم ، ونحـن لا ننكر إمكان البقاء أن لو لم يمت المقـتول، ولكنا قلنا: إن المدة التي قتل قـبلها لم تكن أجلا له ، واحتجـوا بقوله تعالى: ﴿ **وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب**﴾ .

ومن فروع هذه المسألة اختلافهم في المقتول هل هو ميت أم لا؟ وقد زعم الكعبي أن المقتول غير ميت، لأن الموت من قِبَل الله، والقتل من قِبَل القاتل!. وقال أكثر القـدرية: المقتول ميت، وفيه معنيان ، أحـدهما: موت من قِبَل الله عزّ وجلّ، والثاني: قـتل من فعل القاتل. وقال أصحابنا : القـتل غير الموت، ولكن المقتول ميت ، والموت قائم به ، والقتل يقوم بالقاتل [1] .

وفي كتاب العلامة سعد الدين التـفتازاني (والمقتول ميت بأجله أي الوقت المقـدر لموته) «لا كـمـا يزعم بعض المعـتـزلة مـن أن الله تعـالى قـد قطع عليـه الأجل». ويضـيـف العـلامة المولى مـصلح الدين مـصطفى الكسـتلي [يريد أن لكل حيوان وقـتاً قدر الله تعالى موته فـيه بسبب خاص، فهـو يموت فيه بذلك السبب البـته ، حتى لو قـدر عدم وقوع ذلك السـبب في ذلك الوقت فلا قطع بوقوع الموت فـيه ، كما لا قطع بانتـفائه ، وإن كان عدم كل من الموت وسـببه فيه مستحيلاً بالنظر إلى علمه وتقديره، ويقول: لا كما يزعم بعض المعتزلة من أن القـاتل قطع عليـه الأجل ، لأن مـوت المقـتـول عندهم فـعل القـاتل بطريق التولـيد، لا صنع لله تعـالى فيه، فـهو الذي قطع عـليه الأجل، أي لم يتـركه ليسـتوفيـه كله، فالمقـتول عندهم مـيت قبل الموت المقدر لموته، حـتى إنه لو لم يقتل لامتدت حياته إلـى ذلك الوقت البتة ، فلايكون عندهم وقت معين يكون الموت فيه قطعاً ، وهذا يناسب إنكارهم القضاء والقدر في أفعال العبادلله .

---

(١) في ص ١٤٢ وما بعدها .

ويقول العلامة سعد الدين:لنا أن الله تعالى قد حكم بآجال العباد على ما علم الله من غير تردد، وبأنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

واحتجت المعتزلة بالأحاديث الواردة في أن بعض الطاعات يزيد في العمر، وبأنه لو كان ميتاً بأجله لما استحق القاتل ذماً ولا عقاباً ولا دية ولا قصاصاً، إذ ليس موت المقتول بخلقه ولا بكسبه، والجواب عن **الأول: أن** الله تعالى كان يعلم أنه لو لم يفعل هذه الطاعة لكان عمره (أربعين سنة) ، لكنه علم أنه يفعلها، ويكون عمره (سبعين سنة) فنسبت هذه الزيادة إلى تلك الطاعة بناء على علم الله تعالى أنه لولاها لما كانت هذه الزيادة. **وعن الثاني:** أن وجوب العقاب والضمان على القاتل تعبدي ، لإرتكابه المنهي عنه، وكسبه الفعل الذي يخلق الله تعالى عقيبه الموت بطريق جري العادة، فإن القتل فعل القاتل كسباً ، وإن لم يكن خلقاً ، والموت قائم بالميت مخلوق لله تعالى، لا صنع للعبد فيه تخليقاً ولا اكتساباً ، والأجل واحد لا كما زعم الكعبي من المعتزلة [1] .

أما اختلاف أهل السُنَّة بعضهم مع بعض في هذا الموضوع فبعضهم يقول: إن الأجل لايزيد ولا ينقص ، وبعضهم يقول : يزيد وينقص .

وقال الحافظ ابن حجر : وقد اشتهر الخلاف في ذلك بين الأشعرية والحنفية ، وتمسك الأشاعرة بأحاديث كتابة الأجل وهو في بطن أمه ، ثم تطوى الصحف فلايزاد فيها ولا ينقص .

وتمسك الحنفية بمثل قوله تعالى: ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت**﴾ . وأكثر كل من الفريقين الاحتجاج لقوله .

(١) شرح العقائد النفسية ص/١٢٧ .

والحق أن النزاع لفظي، وأن الذي سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل، وأن الذي يجوز عليه التغيير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل ، ولا يبعد أن يتعلق ذلك بما في علم الحفظة والموكلين بالآدمي فيقع فيه المحو والإثبات ، كالزيادة في العمر والنقص، وأما ما في علم الله فلا محو فيه ولا إثبات . . . والعلم عند الله [1].

ويقول الألوسي عند تفسير قوله تعالى: **﴿لكل أجل كتاب﴾ ﴿ يمحو اللهُ ما يشاء ويثبت وعنده أمُّ الكتاب﴾** [2]، قال ابن جبير: يمحو ما يشاء ممن حان أجله، ويثبت ما يشاء ممن لم يأت أجله، وعن ابن عباس والضحاك: يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا بسيئة، لأنهم مأمورون بكتب كل قول وفعل، ويثبت ما هو حسنة أو سيئة، وقال الحسن وفرقة معه: ذلك في آجال بني آدم، يكتب سبحانه وتعالى في ليلة القدر، وقيل في ليلة النصف من شعبان آجال الموتى فيمحو أناساً من ديوان الأحياء ، ويثبتهم في ديوان الأموات، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: يمحو الله تعالى ما يشاء من أمور عباده ويثبت، إلا السعادة والشقاوة والآجال، فإنها لا محو فيها ، وقيل: هو عام في الرزق والأجل والسعادة والشقاوة، ونسب إلى جماعة من الصحابة والتابعين ، وكانوا يتضرعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سعداء ، فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن مسعود [3] رضي الله تعالى عنه قال : ما دعا عبد قط بهذه الدعوات إلا وسع عليه في معيشته: ياذا المن ولا يمن عليه ، ياذا الجلال والإكرام ، ياذا الطول والإنعام، لا إله إلا أنت ، ظهر اللاجئين وجار المستجيرين ومأمن الخائفين ، اللّهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً فامح عني اسم الشقاوة وأثبتني عندك سعيداً ، وإن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب محروماً مقتراً على رزقي فامح حرماني، ويسر رزقي،

(١) فتح الباري ، جـ ٤٨٨/١١ .
(٢) سورة الرعد : الآية (٣٨ ، ٣٩) .
(٣) جـ ٣٣١/١٠

وأثبتني عندك سعيداً موفقاً للخير، فإنك تقول في كتابك الذي أنزلت ﴿يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ . وأخرج عبد بن حميد وغيره عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال ، وهو يطوف بالبيت: «اللهم إن كنت كتب عليَّ شقوة أو ذنباً فامحه، واجعله سعادة ومغفرة ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب»[1] .

وأخرج ابن جرير عن شقيق أبي وائل «أنه كان يكثر الدعاء بهذه الدعوات: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحنا واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فاثبتنا فإنك تمحو ما تشاء وتثبت». وأخرج ابن سعد[2] وغيره عن الكلبي «أنه قال: يمحو الله تعالى من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، فقيل له: من حدثك بهذا ؟ فقال: أبو صالح عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن النبي «صلى الله عليه وسلم». ويقول أبو حيان: إن صحَّ شيء من ذلك ينبغي تأويله ، فمن المعلوم أن السعادة والشقاوة والرزق والأجل لا يتغير شيء منها. وإلى التعميم ذهب شيخ الإسلام ، إذ قال بعد أن نقل كثيراً من الأقوال: والأنسب تعميم كل من المحو والإثبات ليشمل الكل[3].

قال الألوسي: وأنت تعلم أن المحو والإثبات إذا كانا بالنسبة إلى ما في أيدي الملائكة ونحوه فلا فرق بين السعادة والشقاوة والرزق والأجل وبين غيرها في أن كلا يقبل المحو والإثبات، وإن كانا بالنسبة إلى ما في علم الله فلا فرق أيضاً بين تلك الأمور وبين غيرها في أن كلا لايقبل ذلك، لأن العلة إنما تعلق بها على ماهي عليه في نفس الأمر، وإلا لكان جهلاً ، وما في نفس الأمر مما لا يتصور فيه التغير والتبدل ، وكيف يتصور تغير زوجيه الأربعة مثلاً ، وانقلابها إلى الفردية ، مع بقاء الأربعة أربعة ؟ هذا مما لايكون أصلاً ، ولا

---

(١) كنز العمال ٢/ ٦٧٤ رقم (٥٠٣٧) .
(٢) ٣/ ٥٧٤ .
(٣) روح المعاني جـ ١٣/ ١٦٩ ، وما بعدها .

أظنك في مرية من ذلك ، ولا يأبى هذا عموم الأدلة الدالة على أنه ما شاء تعالى كان ، لأن المشيئة تابعة للعلم ، والعلم بالشيء تابع لما عليه الشيء في نفس الأمر، فهو سبحانه لا يشاء إلا ما عليه الشيء في نفس الأمر . . . وكأنه قيل: يمحو ما يشاء محوه ، ويثبت ما يشاء إثباته ، مما سطر في الكتب وثابت عنده العلم الأزلي ، الذي لايكون شيء إلا على وفق ما فيه، والمشهور في تفسير(أم الكتاب)أنها اللوح المحفوظ.قال: وقد ذهب جماعة إلى أنه ما من شيء إلا ويمكن تغييره وتبديله ، حتى القضاء الأزلي ، واستدلوا لذلك بأمور: منها:

- أنه صح من دعائه صلى الله عليه وسلم في القنوت «وقني شرَّ ما قضيت» وفيه طلب الحفظ من شر القضاء الأزلي، ولو لم يمكن تغييره ما صح طلب الحفظ منه[1] .

- ومنها ما صح في حديث التراويح من عذره صلى الله عليه وسلم عن الخروج إليها، وقد اجتمع الناس ينتظرونه لمزيد رَغبتهم فيها بقوله «خشيت أن تُفرض عليكم فتعجزوا عنها» فإنه لا معنى لهذه الخشية لو كان القضاء الأزلي لايقبل التغيير، فإنه إن كان قد سبق القضاء بأنها ستفرض فلابد أن تفرض ، وإن سبق القضاء بأنها لا تفرض فمحال أن تفرض على ذلك الفرض ، على أنه قد جاء في حديث فرض الصلاة ليلة المعراج ما هو ظاهر في سبق القضاء بأنها خمس صلوات مفروضة لاغير ، فما معنى الخشية بعد العلم بذلك ؟ لولا العلم بإمكان التغيير والتبديل[2] .

- ومنها ما صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يضطرب حاله الشريف ليلة الهواء الشديد، حتى أنه لاينام، وكان يقول في ذلك: «أخشى أن تقوم

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .

الساعة» فإنه لا معنى لهذه الخشية أيضاً مع إخبار الله تعالى أن بين يديها ما لم يوجد إذ ذاك ، كظهور المهدي وخروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج ، ودابة الأرض وطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك مما يستدعي تحققه زماناً طويلاً ، فلولم يكن عليه الصلاة والسلام يعلم أن القضاء يمكن تغييره، وإن ما قضى من أشراطها يمكن تبديله ما خشى صلى الله عليه وسلم من ذلك[1].

-ومنها أن المبشرين بالجنة كانوا من أشد الناس خوفاً من النار ، حتى إن منهم من كان يقول: ليت أمي لم تلدني، وكان عمر رضي الله عنه يقول: لو نادى منادٍ : كل الناس في الجنة إلا واحداً، لظننت أني ذلك الواحد، وهذا مما لا معنى له مع إخبار الصادق وتبشيره له بالجنة ، والعلم بأن القضاء لا يتغير[2].

- ومنها انه لولا إمكان التغيير للغا الدعاء ، إذ المدعو به إما أن يكون قد سبق القضاء بكونه ، فلابد أن يكون وإلا فمحال أن يكون ، وطلب مالابد أن يكون ، أو محال أن يكون لغو ، مع أنه قد ورد الأمر به ، والقول بأنه لمجرد إظهار العبودية والافتقار إلى الله تعالى ، وكفى بذلك فائدة، يأباه ظاهر قوله تعالى: ﴿ **ادعوني أستجب لكم**﴾[3] .

وأيضاً أخرج الحاكم وصححه[4] عن ابن عباس قال : «لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله تعالى يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر» .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر[5] عن علي كرّمَ الله وجهه أنه سأل

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المستدرك جـ ٢/ ٣٥٠ .
(٥) كنز العمال جـ ٦ / رقم (١٥٩٨٤) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت .. ﴾ الآية . فقال له عليه الصلاة والسلام : **«لأقرن عينيك بتفسيرها، ولأقرن عين أمتي بعدي بتفسيرها ، الصدقة على وجهها ، وبر الوالدين. واصطناع المعروف محول الشقاء سعادة ، ويزيد في العمر ، ويقي مصارع السوء»** ، وهذا لايكاد يعقل على تقدير أن القضاء لا يتغير .

وقال الألوسي: وفي الأخبار والآثار مما هو ظاهر في إمكان التغير ما لايحصى كثرة، ولعل من ذلك الدعاء المار عن ابن مسعود، ثم إن القضاء المعلق يرجع في المآل إلى القضاء المبرم عند مثبته ، فلا يفيده التعلق بذلك في دفع ما يرد عليه ، ودفع ما يرد على القول بالتغير من أنه يلزم منه التغير في ذاته تعالى، لما أنه ينجر إلى تغير العلم ، وهو يوجب التغير في ذاته تعالى من صفة إلى أخرى، أو يلزم من ذلك الجهل. وهذا مأخوذ من الشبهة التي ذكرها جمهور الفلاسفة في نفي علم الله تعالى بالجزئيات المتغيرة، فإنهم قالوا إنه تعالى إذا علم مثلاً أن زيداً في الدار الآن ، ثم خرج عنها ، فإما أن يزول ذلك العلم ، ولا يعلم سبحانه وتعالى أنه في الدار ، أو يبقى ذلك العلم بحاله، والأول : يوجب التغير في ذاته سبحانه، والثاني : يوجب الجهل، وكلاهما نقص يجب تنزيه الله تعالى عنه بما دفعوا به تلك الشبهة، وهو ما ذكر في المواقف وشرحه، من منع لزوم التغير فيه تعالى ، بل التغير إنما هو في الإضافات لأن العلم عندنا إضافة مخصوصة، وتعلق بين العالم والمعلوم ،أو صفة حقيقية ذات إضافة، فعلى الأول: يتغير نفس العلم ، وعلى الثاني: يتغير إضافاته فقط ، وعلى التقديرين لا يلزم تغير في صفة موجودة ، بل في مفهوم اعتباري .

وأجاب كثير من الأشاعرة والمعتزلة بأن العلم بالشيء وجد ، والعلم بأنه سيوجد واحد، فإن من علم أن زيداً سيدخل البلد غداً فعند حصول الغد

بعلمه بـهذا العلم بأنه دخل البلد الآن ، إذا كـان علمه هذا مستـمـراً بلا غفلة مـزيلة له ، وإنما يحتـاج أحدنا إلى عـلـم آخر مـتجـدد يعلم به أنه دخل الآن، لطريان الغفلة عن الأول، والباري تـعالى يمتنع عليه الغفلة فكان علمه سـبحانه بأنه وُجِـدَ عين علمه بأنه سـيوجد ، فـلا يلزم من تغيـر المعلوم تغير في العلم اهـ[1].

وهكذا رأينا أهل السنة أنفسهم يـختلفون في أن الأجل يزيد وينقص، أو لايزيد ولاينقص ، وبسطنا وجـهة نظر أصـحاب الرأيين بقي توجـيه أصـحاب الرأي الثانـي للأحاديث الصريحـة في أن الأجل يزيد وينقص ، كـحديث «من أراد أن ينسأ له في عـمره . . . » وعنه يقـول ابن التين : هذه الزيادة كناية عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة ، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة، وصيانته عن تضييعـه في غير ذلك ، ومثل هذا ما جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم تتقـاصر أعمـار أمتـه بالنسبة لأعـمار من مضى مـن الأمم ، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وحاصله أن صلة الرحم تكون سببـاً للتوفيق للطاعة والصيانة عن المعـصيـة ، فيـبقى بعـده الذكر الجـميـل ، فكأنه لم يمت ، ومن جملة مـا يحصل له من التوفيق العلم الذي ينتفع به من بـعده ، والصدقة الجارية عليه ، والخلف الصالح[2] .

ويقول الطيبي[3] : ويجوز أن يكون المعنى أن الله يبقى أثر واصل الرحم في الدنيا طويلاً ، فلا يضمحل سريعـاً ، كما يضمحل أثر قاطع الرحم ، ومن هذه المادة قول الخليل عليه السلام (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) .

ونحو هذا مـا أخرجه الطبـراني في الصغِـير عن أبي الدرداء[4] قال: ذكر

---

(١) روح المعاني جـ ١٣/ ص ١٧٠ وما بعدها .
(٢) فتح الباري جـ ٤١٦/١٠ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) عزاه ابن حجر في فتح الباري جـ ٤١٦/١٠ للطبراني في الصغير .

عند رسول الله صلى الله عليه وسلم «من وصل رحمه أنسيء له في أجله» ، فقال: **«إنه ليس زيادة في عمره»** ، قال الله تعالى **﴿فإذا جاء أجلهم ... ﴾** الآية ، ولكن الرجل تكون له الذرية الصالحة يدعون له من بعده » .

ويرشح هذا المعنى ، الحديث الصحيح **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له»** .

وجزم ابن فورك بأن المراد بزيادة العمر نفي الآفات عن صاحب البر في فهمه وعقله»[1] .

ومما هو معلوم أن الزمن ظرف لما يقع فيه من أعمال، ورُبَ زمن قليل يقع فيه من الأعمال الجليلة ، ما لايقع في زمن كثير، فبركة الزمن كثرة ما يقع فيه من أعمال نافعة في الدنيا والآخرة، فالعمر يزيد بزيادة ما يقع فيه، وينقص بنقص ما يقع فيه.

وإذا انتقلنا إلى زيادة الرزق ونقصانه، وموقف القدر منه: وجدنا القرآن الكريم في عشرات الآيات يصرح بأنه بيد الله، وبتقدير الله وحده، بل يقرنه بالخلق والموت والبعث الذي لايشك عاقل أنه بتقدير الله وحده وبمشيئتهِ وخلقه لاشريك له، إقرأ معي قوله تعالى: **﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾**[2] .

-وقوله تعالى: **﴿قل اللهم مالِكَ المُلكِ تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعِزُّ من تشاء ، وتُذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ . ﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت، وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾**[3] .

(١) انظر فتح الباري ، جـ ١٠/٤١٦ .
(٢) سورة الروم ، الآية (٤٠) .
(٣) سورة آل عمران ، الآية (٢٦ ، ٢٧) .

- وقوله تعالى ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ، أإله مع الله ، قل هاتوا بُرهانكم إن كنتم صادقين﴾ [١] .

- وقوله تعالى: ﴿ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾ [٢] .

- وقوله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ومن يدبر الأمر، فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون﴾ ﴿فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تُصرفون﴾ [٣] .

- وقوله تعالى: ﴿الله يَبسُطُ الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ [٤] .

- وقوله تعالى: ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ، بل لجوُّا في عتوٍ ونفورٍ﴾ [٥] .

- وقوله تعالى: ﴿ له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه بكل شيء عليم ﴾ [٦] .

- وقوله تعالى: ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ [٧] ﴿ويعبدون من دون الله ما لايملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولايستطيعون﴾ [٨] .

---

(١) سورة النمل : الآية (٦٤) .
(٢) سورة فاطر : الآية (٣) .
(٣) سورة يونس : الآية (٣١ ، ٣٢) .
(٤) سورة الرعد : الآية (٢٦) .
(٥) سورة الملك : الآية (٢١) .
(٦) سورة الشورى : الآية (١٢) .
(٧) سورة النحل : الآية (٧١) .
(٨) سورة النحل : الآية (٧٣) .

-وقوله تعالى ﴿**وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرّها ومُستودَعَهَا كلٌّ في كتاب مبين**﴾ [1] .

-وقوله تعالى :﴿**وفي السماء رِزقُكم وما توعدون**﴾ ، ﴿ **فوربِ السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون**﴾ [2] .

- موقف السلف والقدرية من هذه القضية :

الرزق مكتوب ومقدر، ونحن في بطون أمهاتنا، كما مر في الحديث الصحيح ، وكل ما للإنسان السعي المكلف به، وفرق بين السعي وحصول الرزق ، وقد ذكرهما الله بقوله﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله**﴾ [3] لكن الناس يظنون أنهم يرزقون أنفسهم بسعيهم وذكائهم ومهارتهم ويظنون كما ظن قارون إذ قال: ﴿ **إنما أوتيته على علم عندي**﴾[4] أو لم يعلم أن قوماً كانت لهم زروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين، فضاعوا وضاعت منهم في غمضة عين ، وورثها سهلة كاملة قوم آخرون؟

إن الفطرة السليمة تسعى للرزق، مؤمنة أن الرزق بيد الله، قد يأتي صاحبه دون كد أو تعب، ومن حيث لا يحتسب، وقد يشقى الساعي طول يومه ولا يحصل قوته، ومن هنا يقول الشاعر :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأحلام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

---

(١) سورة هود : الآية (٦) .
(٢) سورة الذاريات : الآية (٢٢ ، ٢٣) .
(٣) سورة الجمعة : الآية (١٠) .
(٤) سورة القصص : الآية (٧٨) .

ويقول الآخر :

مـا آب مـن سفـر إلا وأزعجـه عـزم إلى سفـر بالرغم يزمعـه
تأبى المطالـب إلا أن تكـلفـه للرزق سـعياً ولكـن ليس يجمـعه
واللـه قسـم بيـن الخلـق رزقـهمـو مـا يخلـق الله مـخلوقـاً يضـيعـه
لكنهم كلفـوا حـرصـاً فلست ترى مـسـتـرزقاً وسـوى الغايات تقنعـه

ويقول الحكيم : عليَّ أن أسعى وليس عليَّ إدراك النجاح .

وكان السلف يؤمنون بكل ذلك، فـعن الأصمعي قال: أقـبلت من جامع البصرة، فطلع أعـرابي على قعود، فقـال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصمع، قـال: من أين أقبلت؟ قلت: من مـوضع يتلى فـيه كـلام الرحمن. قـال: أتل عليَّ . فتلوت «والذاريـات» فلما بلغت ﴿**وفي السـماء رزقكم ومـا توعدون**﴾ قال: حـسبك، فـقام إلى ناقتـه، فنحرها ووزعـها. وعـمد إلى سيـفه وقـوسه فكسـرهما ، وولى ، فلمـا حـججت مع الرشـيـد طفقت أطوف، فـإذا أنا بمن يهـتف بي بصوت رقـيق ، فـالتفت فـإذا الأعرابي وقـد نحل واصـفر ، فـسلم عليَّ، واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية قال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غـير هذا؟ فـقرأت ﴿**فـورب السمـاء والأرض إنه لحق مثل مـا أنكم تنطقون**﴾ فصـاح وقال: ياسبـحان الله من ذا الذي أغضـب الجليل حتى حلف؟ لم يصـدقوه بقولـه حتى حلف؟ قـالها ثلاثاً ، ثم مـات . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**قاتل الله قوماً أقسم لهم ربهم ، ثم لم يصدقوا**» [1] .

وقد زعـمت القدرية أن الله عـز وجل لم يقسم الأرزاق إلا علـى الوجه الذي حكم به من استحقاق المواريث ، وما فرض من سهام الصدقات لأهلها، وما فرض من الغنائم لذوي القـربى ومن ذكر معهم ، وزعمـوا أن الإنسان قد

---

(١) روح المعاني ، جـ ٢٧/ ص ١٠ .

يفوته ما رزقه الله عز وجل ، وأنه قد يأكل رزق غيره إذا غصب شيئاً وأكله ، وأجـازوا أن يزيد الرزق بالطلب وينقص بالتـواني والتواكل والكسل ، والحـرام عندهم ليس برزق لمن أكله .

ويلزمـهم أن من غصب جـاريه فأولدها بالحـرام ولداً، وسقى ذلك الولد البـاناً مغصوبة حتى نشأ ، ثم أطعمه بعد ذلك من الحرام إلى أن بلغ ، وصار لصاً ، فلم يأكل ولم يشرب طول عمره إلامن الحرام ، ثم مات على ذلك يلزمهم في مـثل هذه الصـورة أن يقولـوا : إن الله ما رزقـه شـيـئاً ، ويلزمـهـم كـذلك أن يقولوا: إن الدابة التي لم تأكل إلا من حرام ، لم يرزقها الله ، مع أن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها**﴾.

وقـال أهل الحق : إن كل من أكـل شـيـئـاً أو شـرب ، فـإنما تناول رزق نفسه، الذي قدره الله له حلالاً كان أو حراماً ، ولا يأكل أحد رزق غيره [1] .

أما الهداية والضلال وموقف القدر منهما :

فهـما أكثـر مسـائل القدر اشتـباكـاً بين المتكلمين، وأعظمهـا إشكالاً ودقة وعمقاً ، وهما مرتبطان بما يعرف بمسألة خلق أفعال العباد الاختيارية والتكليف والثواب والعقاب، وللعلماء في هذه المسألة مؤلفات ومؤلفات .

والهداية: كمـا قال الراغب[2] : دلالة بلطفٍ[3]، وأما الإضلال : العدول من الطريق المستقيم[4] .

---

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني ، ص ١٤٤ وما بعدها .
(٢) في المفردات ص / ٥٣٨ .
(٣) وإن قيل كـيف جعلت الهداية «دلالة بلطف» وقـد قال الله (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) قيل : استعمل ذلك على التهكم مبالغةً في المعنى (المرجع السابق) .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .

- **الإضلال في القرآن الكريم :**

ومن الواضح أن القرآن الكريم نسب الإضلال إلى الله تعالى، ونسبه إلى الإنسان، ونسبه إلى الشيطان والأصنام .

فمن الأول: قوله تعالى: **﴿أتريدون أن تهدوا من أضل الله، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾** [1] ، **﴿ فمن يهدي من أضل الله﴾**[2] **﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هَوَاهُ وأضلَّهُ اللهُ على علم﴾** [3] **﴿قل إن الله يُضِلُّ من يشاء﴾**[4] **﴿ويُضِلُّ اللهُ الظالمين ، ويفعلُ الله ما يشاء﴾**[5] **﴿من يُضلل اللهُ فلا هادِيَ له﴾**[6] **﴿ومن يُرد أن يُضِلَّهُ يجعل صَدْرَهُ ضيِّقاً حَرَجاً﴾**[7] .

ومن الثاني : قوله تعالى: **﴿ومن يتبدَّلِ الكُفرَ بالإيمان فقد ضلَّ سواءَ السبيل﴾**[8] ، **﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾**[9] **﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها﴾**[10] **﴿ إن ربَّك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾**[11] **﴿قل إن ضَلَلتُ فإنما أضلُّ على نفسي﴾**[12] **﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضَلُّوا السبيل﴾**[13] **﴿يشترون الضَّلالة**

---

(١) سورة النساء : الآية (٨٨) .
(٢) سورة الروم : الآية (٢٩) .
(٣) سورة الجاثية : الآية (٢٣) .
(٤) سورة الرعد : الآية (٢٧) .
(٥) سورة إبراهيم : الآية (٢٧) .
(٦) سورة الأعراف : الآية (١٨٦) .
(٧) سورة الأنعام : الآية (١٢٥) .
(٨) سورة البقرة : الآية (١٠٨) .
(٩) سورة النساء : الآية (١١٦) .
(١٠) سورة يونس : الآية (١٠٨) .
(١١) سورة النحل : الآية (١٢٥)
(١٢) سورة سبأ : الآية (٥٠) .
(١٣) سورة الفرقان : الآية (١٧) .

ويريدون أن تضلوا السبيل﴾[1] ﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد﴾ [2] ﴿ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ﴾[3] ﴿إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾[4] ﴿لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم﴾[5]

ومن الثالث: قوله تعالى: ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾ [6] ﴿قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ﴾[7] ﴿ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾[8] ، ومن نسبته إلى الإصنام قوله: ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾[9].

- **الهداية في القرآن الكريم** : ومن الواضح أن القرآن الكريم نسب الهداية إلى الله تعالى ، ونسبها إلى الإنسان .

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾[10] ﴿فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾[11] ﴿والذي قدر فهدى﴾[12] ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾[13] ﴿ وقالوا الحمد لله

---

(١) سورة النساء : الآية (٤٤).
(٢) سورة ص : الآية (٢٦) .
(٣) سورة طه : الآية (٨٥) .
(٤) سورة الأحزاب : الآية (٦٧) .
(٥) سورة النساء : الآية (١١٣) .
(٦) سورة النساء : الآية (٦٠) .
(٧) سورة القصص : الآية (١٥) .
(٨) سورة النساء : الآية (١١٩) .
(٩) سورة إبراهيم : الآية (٣٦) .
(١٠) سورة البقرة : الآية (١٤٣) .
(١١) سورة النحل : الآية (٣٦) .
(١٢) سورة الأعلى : الآية (٣) .
(١٣) سورة الحجرات : الآية (١٧) .

الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله﴾[1] **﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾**[2]**﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾**[3].

ومن الثاني : قوله تعالى:**﴿وقال الذي آمن ياقوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد﴾**[4] **﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾**[5] **﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق﴾**[6] **﴿قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾**[7].

- مفهوم الهداية والإضلال عند العلماء :

قال الشهرستاني: قال أصحابنا : إن الهداية من الله تعالى لعباده على وجهين: أحدهما من جهة إبانة الحق والدعاء إليه وإقامة الأدلة عليه، وهذا الوجه يصح إضافة الهداية إلى الرسل وإلى كل داع إلى دين الله عزّ وجلّ ، لأنهم مرشدون إليه ، وهذا تأويل قول الله عزّ وجلّ في رسوله صلى الله عليه وسلم **﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾** اي تدعو إليه.

والوجه الثاني من هداية الله تعالى لعباده ، خلقه في قلوبهم الاهتداء ، كما ذكره الله عزّ وجلّ في قوله:**﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾** فالهداية الأولى من الله شاملة جميع المكلفين ، والهداية الثانية منه خاصة للمهتدين ، وفي تحقيق ذلك نزل قول الله عزّ وجلّ **﴿ والله يدعو إلى**

(١) سورة الأعراف : الآية (٤٣) .
(٢) سورة القصص : الآية (٥٦) .
(٣) سورة النور : الآية (٤٦) .
(٤) سورة غافر : الآية (٣٨) .
(٥) سورة الشورى : الآية (٥٢) .
(٦) سورة الأعراف : الآية (١٥٩) .
(٧) سورة يونس : الآية (١٠٨) .

دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[1]. يعني به: اهتداء القلوب الذي لا يقدر عليه غير الله عزّ وجلّ، ولهذا قال في نبيه ﴿**إنك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء**﴾.

والإضلال من الله عزّ وجلّ لأهل الضلال على معنى خلق الضلالة عن الحق في قلوبهم، وعلى ذلك يحمل قوله: ﴿ **ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً**﴾ وقوله: ﴿ **يضل من يشاء ويهدي من يشاء**﴾ فمن اضله فبُعد له، ومن هداه فبفضله، هذا قول أهل السُّنّة . وزعمت القدرية أن الهداية من الله تعالى على معنى الإرشاد والدعاء وإبانة الحق ، وليس إليه من هداية القلوب شيء ، وزعموا أن الإضلال منه على وجهين : أحدهما أن يقال: إنه أضل عبداً بمعنى أنه سماه ضالاً ، والثاني على معنى : أنه جازاه على ضلالته .

وزعمت الثنوية أن الهداية من النور، والضلال من الظلمة، وزعمت المجوس أن الهداية من الإله والإضلال من الشيطان [2] .

ويقول الكستلي : الهدى قد يكون لازماً مثل الاهتداء ، فيكون بمعنى الرشاد، أي سلوك طريق يوصل إلى الحق ، ويقابله الغي والضلال، بمعنى سلوك طريق لا يوصل إليه، وقد يكون متعدياً بمعنى الإرشاد، أي جعل الغير سالكاً سواء الطريق يقال : هداه الله ، وهديته الطريق ، أي دللته عليه وعرفته إياه ، وأضله الشيطان ، أي دله على طريق الردى، وقد ورد في القرآن إسناد الهداية والإضلال إليه تعالى ولما كان أفعال العباد مخلوقة له تعالى ، ولم يقبح منه شيء عند مشايخنا حملوا الهداية والإضلال للعبد على جعله مهتدياً وجعله ضالاً ، فجعلوا الهداية عبارة عن خلق الاهتداء، أي الإيمان والإضلال على

---

(١) سورة يونس : الآية (٢٥) .

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني ، ص ١٤٠ وما بعدها ؛ وراجع أيضاً أصول الدين / لأبي منصور عبد القاهر البغدادي . ت سنة ٤٢٩ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨١م .

خلق الضلال والكفر، والمعتزلة لما اعتقدوا أن مثل الاهتداء والضلال من أفعال العباد، لا من صَنيعه تعالى، وإلا لم يكن لترتب المدح والثواب على الاهتداء، وترتب الذم والعقاب على الضلال وجه، وإن خلق الضلال قبيح منه تعالى، أولوا الهداية المنسوبة إليه تعالى ببيان طريق الحق، بنصب الدلائل في الدنيا، وإرشاد الناس إلى طريق الجنة في الآخرة، وأولوا الإضلال بوجدان العبد ضالاً، أو تسميته ضالاً، وأولوا الهداية بالدلالة الموصلة إلى البغية، وجعلوا إسناد الإضلال إليه تعالى لكونه من فعل الشيطان بناء على المعنى المجازى [1] .

وقال الشهرستاني في (نهاية الإقدام): قال المعتزلة: التوفيق من الله تعالى إظهار الآيات في خلقه الدالة على وحدانيته، وإبداع العقل والسمع والبصر في الإنسان، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، لطفاً منه تعالى، وتنبيهاً للعقلاء من غفلتهم، وتقريباً للطرق إلى معرفته، وبياناً للأحكام، تمييزاً بين الحلال والحرام، وإذا فعل ذلك فقد وفق وهدى، وأوضح السبيل، وبين المحجة، وألزم الحجة، وليس يحتاج في كل فعل ومعرفة إلى توفيق مجرد، وتسديد منجز، بل التوفيق عام، وهو سابق على الفعل، والخذلان لا يتصور مضافاً إلى الله تعالى، بمعنى الإضلال والإغواء والصدِّ عن الباب، وإرسال الحجاب على الألباب، إذ يبطل التكليف به، ويكون العقاب ظلما[2].

وقالت الأشاعرة: التوفيق والخذلان ينتسبان إلى الله تعالى نسبة واحدة، على جهة واحدة، فالتوفيق من الله تعالى خلق القدرة الخاصة على الطاعة والاستطاعة إذا كانت عنده مع الفعل، وهي تتجدد ساعة فساعة، فلكل فعل قدرة خاصة، والقدرة على الطاعة صالحة لها، دون ضدها من المعصية،

(١) حاشية المولى مصلح الدين مصطفى الكستلي المتوفي سنة ٩٠١ على شرح التفتازاني على متن العقائد النسفية، ص ١٢٩ وما بعدها .
(٢) ص ٤١١ .

فالتوفيق خلق تلك القدرة المتفقة مع الفعل، والخذلان خلق قدرة المعصية [1].

قال الشهرستاني : والقصد بين الطريقين أن يقسم التوفيق قسمة عموم وخصوص ، على عموم الخلق وخصوصهم، فعموم الخلق في توفيق الله تعالى الشامل لجميعهم ، وذلك نصب الأدلة ، وإرسال الرسل ، وتسهيل الطرق ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وخصوص الخلق في توفيق الله الخاص لمن علم منه الهداية ، وإرادته الاستقامة، وذلك أصناف لا تحصى ، وألطاف لا تستقصى ، تبتدئ من كمال الاعتدال في المزاج ، من جهة الطبيعة طيناً ، ومن جهة الشريعة خلالاً ، وهذا في النطفة الحاصلة من الأبوين ، وعلتها النقش الأول من السعادة والشقاوة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **«السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه»**. ثم التربية من الأبوين أو من الأستاذ أو من المعلم أو من أهل البلد وذوي القرابة، والخلطة ممولة أخرى قوية، حتى ربما يغير الاعتدال من النقص إلى الكمال، وعن الكمال إلى النقص، وعلة النقش الثاني من الفطرة والاحتيال، كما قال عليه الصلاة والسلام **« فطر الله العباد على معرفته، فاجتالتهم الشياطين عنها»** وقال: **«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»** ، ثم الاستقلال بحالة البلوغ وكمال العقل يحتاج إلى قوى استمداد من التوفيق، وذلك مزلة الأقدام، ومعجزة الأقلام ، فالتوفيق فيها من الله أن لا يكله إلى نفسه ، مما هي عليها من الاستقلال والاستبداد والخذلان أن يكله إلى نفسه وحوله وقوته ، وعن هذا كان التبري من الحول والقوة ، بقولهم: لا حول ولا قوة إلا بالله، واجباً في كل حال، وذلك مطردة الشياطين، إذ يدخل احتيال الشيطان تغريره بحوله وقوته، والفطرة هي الاحتياج إلى الله تعالى، والتسليم لله، والتوكل على الله ، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله، وذلك كنز من كنوز الجنة، وهذه الحالة - أعني حالة البلوغ

(١) ص ٤١٢ .

والاستقلال - هي مثار القوى الحيوانية الغضبية والشهوية ، **﴿ وما أبرئ نفسي إن النفسَ لأمارة بالسوء﴾** وذلك عند مثار القوى الشهوانية ، ووكز موسى القبطي فقضى عليه فقال: **﴿هذا من عمل الشيطان﴾** ، وذلك عند مثار القوة الغضبية ، وتبرأ الرسول صلى الله عليه وسلم من القوتين جميعاً ، فقال في كل حال : «لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» وهذه الحالة النفسية الثالثة ، وهي تمتد إلى آخر العمر فلا تزيده مواعظ الشرع إلا ترغيباً وترهيباً ، ولا تجانبه مواقع التقدير إلا تنبيهاً وتحذيراً ، فإن انفتح سمعه لمواعظ الشرع ، وبصره لمجاري التقدير انشرح صدره ، وصار على نور من ربه ، وإن جعل إصبعه في أذنيه، فلم يسمع الآيات ، وأسبل جفنه على عينيه فلم يبصر الآيات صار على ظلمة من طبعة وذلك الطبع والختم ، **﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾**[1] **﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾**[2] وربما يكون الختم والطبع من قساوة في جوهر جبلته اكتسبها من أصل فطرته، وربما يكون على كفره ونفاقه أثره على خلاف فطرته، فالتقدير مصدر، والتكليف مظهر، والكل مقدر ، والمقدر ميسر لما خلق له [3] .

- **وأما العمل وارتباطه بالقضاء والقدر:**

ولاشك أن ما سبق كلام حسن ، لكن لما كانت العقلية العربية الإسلامية في صدر الإسلام غير قادرة على هضم هذا التحليل العميق ، وجدنا الصحابة على سجيتهم يستشكلون الأمر ، ويسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمعوا منه «ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها في الجنة والنار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة» ، فقال رجل : يارسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: «من كان من أهل السعادة فسيصير إلى

(١) سورة النساء : الآية (١٥٥) .
(٢) سورة البقرة : الآية (٧) .
(٣) نهاية الإقدام ، ص/٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ .

عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، أعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ **﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾**[1] ، وفي راوية «فلم نعمل ؟ أفلا نتكل ؟ » وفي رواية «فيم العمل اليوم؟ فيما جفت به الأقلام؟ وجرت به المقادير؟ أم فيما نستقبل ؟ قال : «لا بل فيما جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير» ، قال: ففيم العمل؟ فقال : «اعملوا فكل ميسر» [2] .

وعن أبي الأسود الدُّئلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه؟ أشيء قضى عليهم؟ ومضى عليهم من قدر ماسبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم؟ وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضى عليهم ، ومضى عليهم ، فقال: أفلا يكون ظلماً؟ قال : ففزعت من ذلك فزعاً شديداً ، وقلت : كل شيء خلق الله ، وملك يده ، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فقال لي : يرحمك الله ، إنما لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك - أي إلا امتحانك .

قال الطيبي : الجواب من الأسلوب الحكيم ، منعهم من ترك العمل وأمرهم بالتزام ما يجب على العبد من العبودية وزجرهم عن التصرف في الأمور الغيبة فلا يجعلوا العبادة وتركها سبباً مستقلاً لدخول الجنة والنار بل هي علامات فقط . أهـ [3] .

وهذه المسألة - العمل - ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمسألة أساسية وهي خلق

---

(١) الحديث أخرجه مسلم ، كتاب القدر ، حديث رقم (٦) ، أما الآية ففي سورة الليل ، آية رقم (٥) وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ؛ وراجع : فتح الباري جـ ١١/٤٩٦ ، ٤٩٧ .
(٣) فتح الباري ، جـ ١١/٤٩٧ .

أفعال العباد الاختيارية ، ومما لاشك فيه أن الإنسان يميز بين الأفعال الإضطرارية كالسقوط من أعلى والأفعال اللاإرادية كردود أفعال الجوارح فالعين تغلق لا إرادياً أمام عائق مرئي واليد ترد لا إرادياً على خطر يهدد صاحبها . وهذه الأفعال الاختيارية التي تدخل في اختيار الإنسان بين الفعل والترك من حيث أحاسيس البشر ومفهومهم يفعلها الإنسان بإرادته واختياره وقدرته .

وقد شغلت هذه المسألة علماء الكلام المسلمين بما لم يشغلهم مسألة أخرى في العقيدة لأنها ترتبط بالثواب والعقاب والمسؤولية والجزاء الدنيوي والأخروي .

فالمعتزله يقولون : إننا نفرق بالضرورة بين حركة الماشي وحركة المرتعش وأن الأولى باختياره دون الثانية ، وبأنه لو كان الكل بخلق الله تعالى لبطلت قاعدة التكليف والمدح والذم والثواب والعقاب ولكان سبحانه وتعالى هو القائم والقاعد والآكل والشارب والسارق إلى غير ذلك ، ويتمسكون بقوله تعالى : ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ سورة المؤمنون آية (١٤) . وبقوله تعالى ﴿**وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني** .. ﴾ سورة المائدة آية (١١٠) .

ويقولون : لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب الرضى به لأن الرضى بالقضاء واجب ولأن الرضى بالكفر كُفر .

ويقولون : لو كان الكافر مجبوراً في كفره والفاسق مجبوراً في فُسقه فلا يصح تكليفهما بالإيمان والطاعة .

ويقولون : إن الله تعالى أراد من الكافر والفاسق إيمانه وطاعته لا كُفره ومعصيته لأن إرادة القبيح قبيحة [1] .

---

(١) شرح العقائد النسفية ، ص / ٥٦ - ٥٧ ، لسعد الدين التفتازاني ، تحقيق د. أحمد حجازي السقا ، ط ، ١٩٨٨م .

ويقول أهل السُنّة : وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها إن كانت طاعة ويعاقبون عليها إن كانت معصية ، لا كما زعمت الجبرية من أنه لا فعل للعبد أصلاً ، وأن حركاته بمنزلة حركات الجمادات لا قدرة للعبد عليها ولا قصد ولا اختيار ، وهذا باطل لأننا نفرق بالضرورة بين حركة البطش وحركة الارتعاش ، ونعلم أن الأول باختياره دون الثاني ، ولأنه لو لم يكن للعبد فعلٌ أصلاً لما صح تكليفه ، ولا ترتب استحقاق الثواب والعقاب على أفعاله ولا إسناد الأفعال التي تقتضي سابقية القصد والاختيار إليه على سبيل الحقيقة، مثل: صلى وصام وكتب ، بخلاف : طال الغُلام واسودَ لونه. والنصوص القطعية تنفي ذلك كقوله تعالى **﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾** - سورة الأحقاف آية (١٤) -. وقوله تعالى: **﴿فمن شاء ليؤمن ومن شاء فليكفر﴾** - سورة الكهف آية (٢٩) - [١] .

وفي شرح العقيدة الطحاوية قال أهل الحق : أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة وهي مخلوقة لله تعالى ، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه ، فالجبرية غلوا في إثبات القدر فنفوا صنع العبد أصلاً ، كما غالت المشبهة (المعتزلة) في إثبات الصفات فشبهوا ، ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة بل أردأ من المجوس من حيث أن المجوس أثبتت خالِقَيْن (إله النور وإله الظلمة أو إله الخير وإله الشر) وهم أثبتوا خالقِين ، وهدى الله المؤمنين أهل السُنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم [٢] .

فكل دليل صحيح يقيمه الجبري فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء وأنه على كل شيء قدير ، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته ، وأن ماشاء

---

(١) شرح العقائد النسفية ، ص / ٥٧ - ٥٨ ، لسعد الدين التفتازاني، تحقيق الدكتور/ أحمد حجازي السقا ، ط ، ١٩٨٨م .

(٢) ج ٢ /٦٣٩ وما بعدها بتصرف .

الله كان وما لم يشأ لم يكن . وكل دليل صحيح يقيمه القدري (المعتزلي) فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة وأنه حق ، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته.

فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى فإنما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة ، فما استدلت به الجبرية قوله تعالى: **﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾** - سورة الأنفال آية (١٧)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «لن يدخل أحداً عمله الجنة» - متفق عليه .

ومما استدل به المعتزلة قوله تعالى: **﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين﴾** [١] . وقوله تعالى: **﴿جزاء بما كانوا يعملون ﴾** [٢] . وقوله: **﴿ وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون . . ﴾** سورة الزخرف آية (٧٢) [٣] .

وقد يتمسك كل من الجانبين بالآيات ، وباب التأويل مفتوحاً على الجانبين . كما يقول التفتازاني في شرح العقائد النسفية .

والتحقيق من وجهة نظري : - وإن كان يميل إلى رأي المعتزلة في قضية (خلق الأفعال) - إلا أنني اتحاشى كلمة (خلق) وأعبر بدلها بكلمة (إيجاد) ولا أقول كما يقول أهل السُنة أنه إذا كانت الأعمال بقدرة العبد فقد عجزت القدرة الإلهية عن الدخول في فعل العبد لحظة اشتغال قدرة العبد بالفعل ، والعجز نقصٌ والنقص على الله محال .

أقول : فالعجز ليس نقصاً على الدوام فقد يكون باختياره وإرادته فلا يكون نقصاً أو عجزاً - هب نملة تمشي أمامك تستطيع أن تُهدد مشيها وتحويلها من اليمين إلى اليسار، وتستطيع وضع إصبعك عليها فتقتلها، فهل تركك لها

(١) سبق تخريجه .
(٢) سبق تخريجه .
(٣) شرح العقيدة الطحاوية ، ج ٢ / ٦٤٠ بتصرف .

تمشي كيفا أرادت يعتبر عجزاً - مع أن دخول قدرتك مع قدرتها مستحيل .

فهذا مثل ولله المثل الأعلى. خلق الله الإنسان وخلق له قدرةً محددة يتصرف في حدودها حسبما يختار، ففي قدرته أن يرفع رجلاً لكن ليس في قدرته أن يرفع رجلين ، والطير في قدرته أن يطير وليس في قدرة الإنسان أن يطير . ففي حدود هذه القدرة يتصرف الإنسان بإرادته وقدرته التي منحها الله له دون تدخل من القدرة الإلهية لكنها مسيطرة على الإنسان وقدرته وإرادته سيطرة خارجية كلية، يرفع اللقمة ليأكلها فتتدخل الإرادة الإلهية بمنعها فتسقط من يده فلا يأكلها، فهذا مثلٌ يعطينا أن قدرة العبد هي المتصرفة وإرادته هي المختارة تحت سيطرة القدرة والإرادة العليا (قدرة الله سبحانه وتعالى وإرادته) وعلى هذا التصرف العملي يحاسب الإنسان ويجازي على قدرته وإرادته الحُرة، وليس في ذلك نقص على الله فهو الذي أعطاه هذه الإرادة وحددها وأعطاه هذه القدرة وحددها .

بقيٌّ أن نقول: فما أثرُ الكتابة على الطفل في بطن أمه بالسعادة والشقاء؟ وما أثر القدر والقضاء الذي يحدد مصير الإنسان وأعماله وهو في بطن أمه؟ - كما جاء في النصوص القرآنية والحديثية .

ويجيب المعتزلة عن ذلك: بأن هناك فرقاً بين العلم وبين القدرة ، فالعلم كاشف لما سيكون ولا تأثير له في إيجاده، والقدرة والإرادة الإلهية مؤثرتان بالإيجاد أو العدم ، فعلم الله تعالى وكتابة الشقاوة والسعادة إنما هو كشفٌ لما سيكون عليه الإنسان من فعل مؤدٍ إلى الشقاوة أو من فعل مؤدٍ إلى السعادة. فالإنسان مع هذا العلم ومع هذه الكتابة مختار فعال لما يختار بإرادته وبقدرته حيث لايعلم مافي علم الله وما كتب عليه .

فالمعتزلة حينئذ يقولون: قد يقع في ملكه ما لايرضاه ، فيقع الكفر وهو

لا يرضى لعباده الكفر .

وأهل السُنة يقـولون : لا يقع في ملكه ما لايرضى ومـا لا يريد . وهذا مـبني على خلق الأفـعـال أيضـاً ، فمـا يقع هو بـقدرة الله أو بـقدرة العـبـد، فالقائلون بقـدرة العبد: يقولون: يقع ما لا يريد ، والقـائلون بقدرة الله تعالى يقولون: لا يقع إلا ما يريد لأن القدرة تابعة للإرادة .

وأكرر وأعيد أن النصوص قابلة لتوجيه كل من الفريقين وكما يقول شارح العقيدة الطحاوية أن أدلة الفريقين تتكافأ وتتساقط [1] .

---

(١) ج ٢ / ٦٤١ .

الخاتمـة

الحق أن الموضوع شائك ، لايكاد الباحث يؤمن بحقيقة حتى يهتز إيمانه بها، ولا يكاد يقتنع بدليل حتى ينقضه آخر. لقد اضطربت أفكاري، واختلطت معلوماتي، ولست أدري كيف بدأت ولا ماذا تناولت؟ ولا إلى أي حقيقة علمية انتهيت، بل كدت أغرق في بحر القدر، بل غرقت. وانتبهت بعد أن مرت بفكري هذه الرحلة الغامضة ، فإذا بي مازلت واقفة على شاطئ بحر القضاء والقدر، ومازالت سفينتي تطوى شراعها، ومازالت أمواج البحر تعلو وتهبط ، ومازالت الأعماق والظلمات تخيفني، فنكصت على عقبي، وتذكرت قول أبي المظفر السمعاني: سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسُنّة، دون محض القياس والعقل ، فمن عدل عن التوقيف فيه ضلَّ وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العين ، ولا ما يطمئن به القلب، لأن القدر سر من أسرار الله تعالى، اختص به العليم الخبير، وضرب دونه الأستار ، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم ، وطوى علمه على العالم ، فلم يعلمه نبي مرسل ، ولا ملك مقرب [1].

وواجبنا أن نقف حيث حد لنا ولا نتجاوزه، وقد روى الطبراني بسند حسن من حديث ابن مسعود رفعه «إذا ذكر القدر فأمسكوا»[2] .

اللّهم ارزقنا إيماناً بك وبملائكتك وكتبك واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره حلوه ومره .

---

(١) انظر فتح الباري ، جـ ١١/ ص ٤٧٧ - أول كتاب القدر .

(٢) المعجم الكبير ١٠/١٩٩ رقم (١٠٤٤٨) ، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٣٤) .